رسالة عبد العزيز
الى العلماء في المشرق والمغرب

بسم الله الرحمن الرحمن

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين **محمد** ، **وعلى آله** وصحبه أجمعين .

من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من العلماء والقضاة في الحرمين والشام ومصر والعراق وسائر علماء المشرق والمغرب [1] .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد ، فإن الله عز وجل شأنه ، وتعالى سلطانه ، لم يخلق الخلق عبثاً ، ولا تركهم سدى ، وإنما خلقهم لعبادته ، فأمرهم بطاعته ، وحذرهم مخالفته ، وأخبرهم تعالى أن الجزاء واقع لا محالة ، إما في ناره بعدله ، أو في جنته بفضله ورحمته ، قد أخبر عز وجل بذلك في كل كتاب أنزله ، وعلى لسان كل رسول أرسله ، كما نطقت بذلك الآيات القرآنية ، وأخبرتنا به الأحاديث النبوية ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وقال : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾ وقال سبحانه: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ فالعبادة

---

(١) أخذنا هذه الرسالة عن كتاب « الدرر السنية والتحف الوهابية » جمع ابن سحمان .

اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال مختصة بجلالته وعظمته فهي الغاية المحبوبة له تعالى شأنه والمرضية له ، وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح لقومه (اعبدوا الله مـــا لكم من إله غيره) وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم من الرسل ، كل قال لقومه (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وذلك أن الإله يطلق على كل معبود بحق أو بباطل والإله الحق هو : (الله) ، قال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومـــا أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله الا أنا فاعبدون ﴾ .

معنى كلمة التوحيد :

فنحن لما علمنا وفهمنا من كلام الله وسنة رسوله ، وكلام الأئمة الأعلام رضي الله عنهم كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة السلف أن (لا إله إلا الله) معناها يخصها ، وهي ترك كل معبود مع الله ، وإخلاص الإلهية له تعـالى وحده ، وأن العبادة بأفعالهم مما أمرهم به في كتابه وعلى لسان رسوله إذا جعلت لغيره تعـــالى صار ذلك الغير إلهاً مع الله وإن لم يعتقد الفاعل ذلك . فالمشرك مشرك شاء أم أبى ، وليست خاصة بالإيمان بأفعاله تعـــالى وتقدس ، كخلقه السموات والأرض ، والليل والنهار ، ورزق العباد وتدبير أمورهم ، لأن هـــذا يسمى (توحيد الربوبية) الذي أقرّ به الكفار الأولون في سورة يونس والزمر والزخرف وغيرهـــا ، وأن معناها لغة : الذل والخضوع ، وشرعاً : ما أمر به من غير اطراد عرفي ، ولا اقتضاء عقلي ، من أفعال العبـــاد وأقوالهم المختصة بجلال الله وعظمته ، كدعائه تعالى بما لا يقدر عليه إلا هو من جلب نفع او دفع ضر ، او رجائه فيه والتوكل عليه ، وذبح النسك والنذر لجلب خير او دفع ضر لا يقدر عليه إلا الله ، والإنابة والخضوع ، كل ذلك مختص بجلال الله كالسجود والتسبيح والتهليل ، فكل ذلك مما قدمناه هو معنى قوله (لا إله إلا الله) ، ولا يغني أحد التوحيدين عن الآخر ، بل صحة أحدهما مرتبطة بوجود الآخر ، فلما فهمنا ذلك وعلمنا به قام علينا أهل الأهواء فخرّجونا وبدّعونا ، وجعلوا اليهود

والنصارى أخفّ شراً منا ومن أتباعنا ، ولم ننازع العدو في سائر المعاصي بأنواعها ، ولا المسائل الاجتهادية ، فلم يجرِ الاختلاف بيننا وبينهم في ذلك ، بل في العبادة بأنواعها والشرك بأنواعه .

الشفاعة والوساطة وحق الله وحق رسوله وأوليائه :

فنحن نقول : ليس للخالق من دون الله من ولي ولا نصير . وسائر الشفعاء محمد ﷺ سيدهم وأفضلهم فمن دونه ، لا يشفعون لأحد إلا بإذنه ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه. أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء. ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ . وإذا كان كذلك فحقيقة الشفاعة كلها لله ، فلا تسأل في هذه الدار إلا منه سبحانه وتعالى ، وأن يشفع فيه[1] نبيه ﷺ ، فجميع الأنبياء والأولياء لا يجعلون وسائل ولا وسائط بين الله وبين الخلق في جلب الخير او دفع الشر ، ولا يجعل لهم من حقه شيء ، لأن حقه تعالى وتقدس غير جنس حقهم ، فإن حقه عبادته بأنواعها بما شرع في كتابه ، وعلى لسان رسوله . وحق أنبيائه عليهم السلام الإيمان بهم وبما جاؤوا به ، وموالاتهم وتوقيرهم ، واتباع النور الذي أنزل معهم ، ومحبتهم على النفس والمال والبنين والناس أجمعين ، وعلامة الصدق في ذلك اتباع هديهم والإيمان بما جاؤوا به من عند ربهم . قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونِ يحببكم الله ﴾ والإيمان بمعجزاتهم ، وأنهم بلّغوا رسالات ربهم ، وأدُّوا الأمانة ، ونصحوا الأمة ، وأن محمداً ﷺ خاتمهم وأفضلهم ، وإثبات شفاعتهم التي أثبتها الله في كتابه ، وهي من بعد إذنه لمن رضي عنه من أهل التوحيد . وأما المقام المحمود الذي ذكره الله في كتابه وعظم شأنه فهو لنبينا محمد ﷺ .

وكذلك حق أوليائه محبتهم والترضي عنهم والإيمان بكراماتهم ، لا دعاؤهم ليجلبوا لمن دعاهم خيراً لا يقدر على جلبه إلا الله تعالى ، أو ليدفعوا عنهم سوءاً لا يقدر على دفعه إلا هو عز وجل، لأن ذلك عبادة مختصة بجلاله تعالى وتقدس.

---

(١) أي في السائل .

هذا إذا تحققت الولاية أو رجيت لشخص معين كظهور اتباع سنة وعمل بتقوى في جميع أحواله، وإلا **فقد صار الولي في هذا الزمان من أطال سبحته، ووسع كمه، وأسبل إزاره، ومد يده للتقبيل، ولبس شكلاً مخصوصاً، وجمع الطبول والبيارق، وأكل أموال عباد الله ظلماً وادعاء، ورغب عن سنة المصطفى وأحكام شرعه.**

خصوم الوهابية بدأوهم بالقتال:

فنحن إنما ندعو إلى العمل بالقرآن العظيم، والذكر الحكيم، الذي فيه الكفاية لمن اعتبر وتدبّر، وبعين بصيرته نظر وفكّر، فإنه حجة الله وعهده، ووعده ووعيده، وأمانه وقدره، ومن اتبعه عاملاً بما فيه جدّ جدُّه، وعلا مجده، وأنار رشده، وأبان سعده. والتوحيد ليس هو محل الاجتهاد، فلا تقليد فيه ولا عناد، ولا نكفر إلا من أنكر أمرنا هذا ونهينا، فلم يحكم بما أنزل الله في التوحيد، بل يحكم بضده الذي هو الشرك الأكبر الذي لا يغفر، كما سنذكر أنواعه، فجعله ديناً وسماه الوسيلة عناداً وبغياً، ووالى أهله وظاهرهم علينا، ولم يقوم أركان الدين ممتنعاً أن دعوناه، وأمروهم أن يبدأوا بقتالنا ليرجعونا عن دين الله الذي وصفنا إلى ما هم فيه وكانوا عليه من الشرك بالله، والعمل بسائر ما لا يرضي رب العباد﴿ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره المشركون﴾ وما حجتهم علينا الا أن المدعو يكون شفيعاً ووسيلة. ونحن نقول: هؤلاء الداعون الهاتفون بذكره، المعتقدون في الاحياء الغائبين المدعوين والأموات يطلبون كشف شدتهم، وتفريج كربتهم، وإبراء مريضهم، ومعافاة سقيمهم، وتكثير رزقهم، وإيجاده من العدم، ونصرهم على عدوهم براً وبحراً، لم يكفهم الاقتصار على مسألة الشفاعة والوسيلة، وهما من أعظم المخاصمة الجارية علينا ممن قاتلنا وبدعنا وجعل اليهود والنصارى أخف شراً منا ومن أتباعنا...

وحقيقة قولنا: إن الشفاعة ـ وإن كانت حقاً في الآخرة ـ فلها أنواع مذكورة في محلها، ووجب على كل مسلم الإيمان بشفاعته ﷺ، بل وغيره من الشفعاء، فهي ثابتة بالوصف لا بالشخص، ما عدا الشفاعة العظمى فإنها لأهل الموقف عامة،

وليس منها مـا يقصدون فالوصف من مات لا يشرك بالله شيئاً كما في البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لكل نبي دعوة مستجابة ، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وهي نائلة منكم ان شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً »[1] – وحديث أنس بن مالك الذي في الشفاعة بطوله وحديث الذراع الذي رواه أبو هريرة المتفق عليه – وإذا كانت بالوصف فرجاؤها من الله ودعاؤه أن يشفع فيه نبيه هو المطلوب .

ارادة الله في التكوين وارادته في التكليف ، والشفاعة لله وباذنه ومنه تطلب :

فالمتعين على كل مسلم صرف همته وعزائم أمره إلى ربه تبارك وتعالى بالإقبال اليه والاتكال عليه والقيام بحق العبودية لله عز وجل ، فإذا مات موحداً تشفع الله فيه نبيه ، بخلاف من أهمل ذلك وتركه ، وارتكب ضده من الإقبال إلى غير الله بالتوكل عليه ورجائه فيما لا يمكن وجوده إلا من عند الله ، والإلتجاء إلى ذلك الغير ، مقبلاً على شفاعته ، متوكلاً عليها طالباً لها من النبي ﷺ أو غيره ، راغباً اليه فيها ، تاركاً ما هو المطلوب المتعين عليه ، المخلوق لأجله ، فإن هـذا بعينه فعل المشركين واعتقادهم ، ولا نشأت فتنة في الوجود إلا بهذا الاعتقاد ، فصار شقياً بالإرادة الكونية والعاقبة الغوية ، لأن الإرادة الدينية أصل في إيجـــاد المخلوقات ، والإرادة الكونية أصل...[2] فمن كتبت عليه الشقاوة فلا يسير إلا لها ولا يعمل إلا بها . قال تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ فهذه هي الإرادة الكونية ، وهي لا تعارض الإرادة الدينية التي هي

---

(١) الحديث متفق عليه وجملة (فهي نائلة) الخ .. زيادة انفرد بها مسلم .

(٢) في هامش الأصل ما نصه : أقول : في هذا الكلام شيء ساقط وخلل ، والذي يوضح المراد في هذين الأصلين قول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال : « الارادة في كتاب الله نوعان إرادة تتعلق بالأمر وإرادة تتعلق بالخلق فالارادة المتعلقة بالأمر أن يريد من العبد فعل ما أمره وأما إرادة الخلق فأن يريد ما يفعله هو. فإرادة الأمر هي المتضمنة للمحبة والرضا وهي الارادة الدينية . والارادة المتعلقة بالخلق هي المشيئة وهي الارادة الكونية القدرية . ذكره شيخ الاسلام في المنهاج .

الأصل في إيجاد المخلوقات [1] مع بقائه مختاراً مدركاً للأشياء . ومن كان هذا وصفه فلا ينالها ، لأن الله تعالى ليس له شريك في الملك كما أنه ليس له شريك في استحقاق العبادة ، بل هو المختص بها ، ولا تليق إلا بجلاله وعظمته ، فلا إله إلا هو وحده لا شريك له. ولهذا حسم جل وعلا مادة الشفاعة عن كل أحد بغير إذن الإله وحده ،فلا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، لا ملك ولا نبي ولا غيرهما ، لأن من شفع عند غيره بغير اذنه فهو شريك له في حصول ذلك المطلوب لتأثيره فيه بشفاعته ، ولا سيما إن كانت من غير اذنه . فجعله يفعل ما طلب منه ، والله تعالى لا شريك له بوجه من الوجوه ، وكل من أعان غيره على أمر فقد شفعه فيه ، والله تعالى وتر لا يشفعه أحد بوجه من الوجوه ولهذا قال عز من قائل : ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ وقال : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ وطلبها من غير الله في هذه الدار زعم بعدم تعليقها بالإذن من الله والرضا عن المشفوع له. وقال تعالى: ﴿ ما لكم من دونه من وليٍّ ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾، وقال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه وليّ ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾ ، والعبرة في القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، مع ملاحظته وعدم الاقتصار عليه .

الدعاء مشروع للموتى وللنبي – لا دعاؤهم :

وأما دعاء الله عز وجل للغير فقد مضت السنة أن الحي يطلب منه سائر ما يقدر عليه ،ودعوة المسلمين بعضهم لبعض مستحبة قد وردت بها الآثار الصحيحة : في مسلم وغيره ، فإن كانت للميت فهي آكد . وكان النبي ﷺ يقف على القبر

(١) كرر قوله انالارادة الدينيةهيالأصل في وجود المخلوقات والمتبادر ان الارادة الكونية هي في الايجاد والتكوين . وإنما المراد بالارادة الدينية التكليف . ولعله يقصد العلة الغائية لخلق المكلفين أخذاً من قوله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) – كتبه مصححه .

بعد الدفن فيقول : « إسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل » فالميت أحوج بعد الدفن إلى الدعاء فإذا قام المسلمون على جنازته دعوا له لا به ، وشفعوا له بالصلاة عليه لا استشفعوا به ، فبدّل أهل الشرك والبدع قولاً غير الذي قيل لهم ، بدلوا الدعاء له بدعائه نائياً عنهم كان او قريباً ، والاستغاثة به والهتف باسمه عند حلول الشدة . وتركوا مَن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه . وقصدوها بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ إحساناً إلى الميت وتذكيراً بالآخرة فبدلوا ذلك بسؤال الميت نفسه وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة ، وحضور القلب وخشوعه عندها أعظم منه في الصلاة في المساجد ووقت الإحسان .

وإذا شرع الدعاء لسائر المؤمنين فالنبي ﷺ أحق الناس بأن يصلى ويسلم عليه ويدعى له بالوسيلة كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ مرة واحدة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت له شفاعتي يوم القيامة » .

واستشفاع العبد في الدنيا إنما هو فعل السبب لحصول شفاعته له يوم القيامة كما وعد فيما جاء به قولاً وعملاً واعتقاداً (١) وإنما سئلت له الوسيلة مع تحققها تنويهاً بقدره ، ورفعاً لذكره ، ويعود ثواب ذلك الينا . فهذا هو الدعاء المأثور ، وهو فارق بين الدعاء الذي أحبه والذي نهى عنه ، ولم يذكر أحد من الأئمة الأربعة ولا من غيرهم من أئمة السلف فيما نعلمه أن النبي ﷺ يسأل بعد الموت الاستغفار ولا غيره .

قال الإمام مالك رحمه الله فيما ذكره اسماعيل بن إسحق في المبسوط عنه

---

(١) المفهوم من العبارة ان سبب حصول الشفاعة في الآخرة هو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من الأقوال والأفعال والعقائد لا طلبها باللسان منه فإن هذه بدعة غير مشروعة .

والقاضي عياض في الشفاء والمشارق وغيرهما من أصحاب مالك عنه: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ويدعو له ولكن يسلم ويمضي . وقال أيضاً في المبسوط عن مالك : لا بأس لمن قدم من السفر أو خرج اليه أن يقف عند قبر النبي ﷺ ويصلي ويسلم عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر، فقيل له: إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه وهم يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر يأتون عند القبر فيسلمون عليه ويدعون ساعة ، فقال : لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه في بلدنا لا من الصحابة ولا غيرهم ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك يكررون المجيء إلى القبر ، بل كانوا يكرهونه إلا لمن جاء من سفر أو أراده [١] . انتهى .

ما يفعل عند قبره ﷺ والمأثور منه :

النهي عن اتخاذ قبره ﷺ عيداً ، وحديث شد الرحال :

وتلاوة الآية في قوله : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ﴾ الآية ... والاستغفار بحضرة القبر وإن قال به جماعة من متأخري الفقهاء كلهم لم يقولوا يدعى صاحب القبر يدعى الله ، بل المحفوظ عنهم أن الميت والغائب لا يسأل منه شيء لا استغفار ولا غيره . واستغفارهم الله لا الرسول ﷺ ، وحياته في قبره برزخية ولا تقتضي دعاءه ، وأصحابه أعلم بها منا ولم يأتِ أحدهم إلى القبر فيسأله ويستغيث به ، وقد ثبت النهي عنه عليه الصلاة والسلام أن يتخذ قبره عيداً ، قال أبو يعلى الموصلي في مسنده ، عن علي بن الحسين رضي الله عنهما ، قال : أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً ، وإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم » ، رواه أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في مختاراته ، وروى سعيد بن منصور في السنن ، عن أبي سعيد مولى المهدي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلّوا عليَّ حيثما كنتم

---

(١) روي هذا عن ابن عمر ولم يكن يفعل كثيراً ، كتبه مصححه .

فإن صلاتكم تبلغني » روى هذا الحيث أبو داود عن أبي هريرة ورواه سعيد بن منصور في سننه من حديث أبي سعيد مولى المهدي ورواه أيضاً من حديث الحسن ابن الحسن بن علي رضي الله عنه ، وهذان الحديثان وان كانا مرسلين فهما يقويهما حديث أبي هريرة المرفوع وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا تشدوا الرحال إلى مسجد من المساجد إلا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هـذا » وهو حديث ثابت باتفاق أهل العلم يتلقى بالقبول عنهم [١] وهو ان كان معنـاه لا تشدوا الرحال إلى مسجد من المساجد إلا الى الثلاثة التي قد ذكرت فالسفر الى هذه المساجد الثلاثة إنما هو للصلاة فيها والدعاء والذكر ،وقراءة القرآن ، والاعتكاف الذي هو من الأعمال الصالحة .

ما يفعل عند قبره ﷺ والمأثور منه :

وما سوى هـذه المساجد لا يشرع السفر اليه بإتفاق أهل العلم حتى مسجد (قبا) يستحب قصده من المكان القريب كالمدينة ،ولا يشرع شد الرحل اليه من بعيد ، ولذلك كان النبي ﷺ يأتي اليه كل سبت ماشياً وراكباً ، وكان ابن عمر يفعله كما في الصحيح. فإن كان قبا أسس على التقوى فمسجده ﷺ أعظم في تأسيسه على التقوى ، لذلك قال : «مسجدي هذا».. فكلا المسجدين أسس على التقوى، ولكن اختص مسجده بأنه أكمل في هذا الوصف من غيره فكان يقوم في مسجده يوم الجمعة ، ويأتي مسجد قبا يوم السبت ، وإذا كان السفر إلى مسجد غير الثلاثة ممتنعاً شرعاً مع أن قصده لأهل مصره يجب تارة [٢] ويستحب اخرى ، وكان في قصد المساجد من الفضل ما لا يحصى، فالسفر الى مجرد القبور أولى بالمنع. ولا يغتر بكثرة العادات الفاسدة التي أحدثها الملوك وأشباههم والأحاديث التي رواها

---

(١) رواه الجماعة كلهم ولفظه المشهور « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » وفي لفظ مسلم « لا تشدوا » بالجمع والخطاب .

(٢) كذا بالأصل ولعل في العبارة سقط .

الدارقطني في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام كلهـــا مكذوبة موضوعة باتفاق غالب أهل المعرفة، منهم ابن الصلاح، وابن الجوزي، وابن عبد البر، وأبو القاسم السهيلي، وشيخه ابن العربي المالكي، والشيخ تقي الدين وغيرهم، ولم يجعلها في درجة الضعيف الا القليل، وكذلك تفرد بها الدارقطني عن بقية أهل السنن، والأئمة كلهم يرون بخلافه. وأجلّ حديث روي في هذا الباب حديث أبي بكر البزاز، ومحمد بن عساكر، حكاه أهل المعرفة بمصطلح الحديث كالقشيري والشيخ تقي الدين وغيرهما، وإنما رخص ﷺ في زيارة القبور مطلقاً بعـد أن نهى عنها كما ثبت في الصحيح، لكن بلا شد رحل وسفر اليها للأحاديث الواردة في النهي عن ذلك كما تقدم.

زيارة قبره ﷺ والنهي عن اتخاذ القبور مساجد :

وإذا جـــاء السفر [١] المشروع لقصد مسجد النبي ﷺ للصلاة فيه دخلت زيارة القبر تبعاً لأنها غير مقصودة استقلالاً، وحينئذ فالزيارة مشروعة بجمع على استحبابها بشرط عدم فعل محذور عند القبر كما تقـــدم عن مالك، وما حكاه الغزالي رحمه الله ومن وافقه من متأخري الفقهاء من زيارة القبر [٢] فمرادهم السفر المجرد عن فعل العبادة من الصلاة والدعاء عنده، بل يصلي ويسلم عليه ويسأل له الوسيلة، ثم يسلم على أبي بكر، ثم عمر، ولا يقصد الصلاة عند القبر للعنه ﷺ المتخذين قبور أنبيائهم مساجد، واللعنـة في كلام الله وكلام رسوله لا تجامع إلا الحرمة والإثم لا مجرد الكراهة، لقوله: « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبَـــد. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »، وقال ابن حجر رحمه الله في (الإمـــداد الموسوم بشرح الإرشاد) : ينوي الزائر المتقرب السفر إلى مسجده ﷺ وشد الرحل اليه لتكون زيارة القبر تابعة. انتهى.

واتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد هو الموقع لكثير من الأمم إمـا في

---

(١) استعمل جاء بمعنى كان او وجد إن لم يكن محرفاً عن جاز.

(٢) لعل أصله من السفر لأجل زيارة القبر.

الشرك الأكبر ، أو فيما دونه من الشرك ، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين كوُدّ وسُواع ويغوث وتماثيل طلاسم الكواكب ونحو ذلك يزعمون أنها تخاطبهم وتشفع لهم . والشرك بقبر النبي ﷺ أو الرجل المعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر [1] ، ولهذا تجد أهل الشرك كثيراً ما يتضرعون ويخشعون عندها ما لا يخشعون لله في الصلاة ، ويعبدون أصحابها بدعائهم ورجائهم ، والاستغاثة بهم ، وسؤال النصر على الأعداء ، وتكثير الرزق ، وإيجاده ، والعافية ، وقضاء الديون ، ويبذلون لهم النذور لجلب ما أملوه ، أو دفع ما خافوه ، مع اتخاذهم أعياداً ، والطواف بقبورهم ، وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على تربتها ، وغير ذلك من أنواع العبادات ، والطلبات التي كان عليها عباد الأوثان يسألون أوثانهم ليشفعوا لهم عند مليكهم . فهؤلاء يسأل كل منهم حاجته وتفريج كربته ، ويهتفون عند الشدائد باسمه كما يهتف المضطر بالفرد الصمد ، ويعتقدون أن زيارته موجبة للغفران ، والنجاة من النيران ، وانها تجب ما قبلها من الآثام ، بل قد وجد هذا الاعتقاد في الأشجار والغيران ، ويهتفون باسمها واسم من ينسبون اليه من المعتقدين بما لا يقدر عليه إلا رب العالمين ، وأكثر ما يكون ذلك عند الشدائد .

عبادة القبور بالدعاء وغيره .

مراتب دعاء غير الله تقرباً اليه وكونها شركاً .

والله تعالى عز شأنه فسر هذا الدعاء في مواضع أُخر بأنه عبادة محضة كقوله: ﴿ وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ وقوله : ﴿ انكم تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ والأنبياء والملائكة والصالحون كل معبود من هؤلاء داخل في عموم قوله سبحانه : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ كما هو سبب النزول وقوله

---

(١) ان أصنام قوم نوح تماثيل لرجال صالحين اتخذوها ذكرى لهم ثم عظموها تعظيم العبادة كما رواه البخاري عن ابن عباس وكتبه مصححه .

عز شأنه : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ فدعاؤهم آلهتهم هو عبادتهم لها ، ولأنهم كانوا إذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ،ومع هذا فهم يسألونها بعض حوائجهم بواسطة قربهم من الله ويطلبونها منهم بشفاعتهم لهم . فأمر الله العباد بإخلاص تلك العبادة له وحده ، فلا يدعونهم ولا يسألونهم الشفاعة ، فإن ذلك دين المشركين . قال الله تعالى فيهم : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ الآية .

وإنما ذكر الله تعالى ذلك عنهم لأنهم يدعون الملائكة والأنبياء ويصورون صوراً ليشفعوا لهم فيما دعوهم فيه وذلك بطرق مختلفة ، ففرقة قالت ليس لنا أهلية مباشرة دعاء الله ورجائه بلا واسطة تقربنا اليه وتشفع لنا لعظمته وفرقة قالت الأنبياء والملائكة ذوو وجاهة عند الله ومنزلة عنده ، فاتخذوا صورهم من أجل حبهم لهم ليقربوهم إلى الله زلفى وفرقة جعلتهم قبلة في دعائهم وعبادتهم وفرقة اعتقدت أن لكل صورة مصورة على صورة الملائكة والأنبياء وكيلاً موكلاً بأمر الله ، فمن أقبل على دعائه ورجائه وتبتل اليه قضى ذلك الوكيل ما طلب منه بأمر الله وإلا أصابته نكبة بأمره تعالى . فالمشرك انما يدعو غير الله بما لا يقدر عليه الا هو تعالى ويلتجىء اليه فيه ويرجوه منه بما يحصل له في زعمه من النفع ، وهو لا يكون إلا فيمن وجدت فيه خصلة من أربع : اما أن يكون مالكاً لما يريد منه داعيه ،فإن لم يكن مالكاً كان معيناً،فإن لم يكن كان ظهيراً ، فإن لم يكن كان شفيعاً،فنفى الله سبحانه وتعالى هذه المراتب الأربع عن غيره ، والشركة والمظاهرة والشفاعة التي لأجلها وقعت العداوة والمخاصمة بالآية المتقدمة وبقوله : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ الآية وقوله :﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ وقوله :﴿قل اللهم مالك الملك﴾ وقوله : ﴿لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار﴾ وقوله : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ وقوله :﴿ مالك يوم الدين ﴾ وقوله:

﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ فأثبت سبحانه ما لا نصيب فيه لمشرك البتة وهي الشفاعة بإذنه لمن رضي عنه وهو سبحانه يعلم السر وأخفى، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولهذا لما قالت الصحابة رضي الله عنهم : أربنا قريب فنناجيه،أم بعيد فنناديه ؟ أنزل الله سبحانه ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ﴾ .

حقيقة التوحيد :

الشرك يقتضي الايمان بالله وعبادته :

الموحد من اجتمع قلبه ولسانه على الله مخلصاً له تعالى الالوهية المقتضية لعبادته في محبته وخوفه ورجائه ودعائه والاستعانة به والتوكل عليه وحصر الدعاء بما لا يقدر على جلبه أو دفعه الا الله وحده والموالاة في ذلك والمعاداة فيه وأمثال هذا ناظراً الى حق الخالق والمخلوق من الأنبياء والأولياء مميزاً بين الحقين، وذلك واجب في علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته ومحبته وموالاته وطاعته ، وهذا من تحقيق لا اله إلا الله لأن معنى الإله عند الأولين مـا تألهه القلوب بالمحبة التي كحب الله والتعظيم والإجلال والخضوع فالرجاء بهـا هو مختص من عند الله [1] وذبح النسك له قال تعالى: ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، تالله ان كنا لفي ضلال مبين ، اذ نسويكم برب العالمين) وهم ما سووهم بـه لا في الصفات ولا في الذات ولا في الأفعال كما حكى الله عنهم في الآيات ، والشاهد الله بأنه لا إله إلا هو ، وقائلها نافياً قلبه ولسانه لالوهية كل ما سواه من الخلق، ومثبتاً به الالوهية لمستحقها وهو الله المعبود بالحق ، فيكون معرضاً عن ألوهية جميع المخلوقات لا يتألههم بما لا يقدر عليه إلا الله ، مقبلاً على عبادة رب الأرض والسموات ، وذلك يتضمن اجتماع القلب في عبادته ومعاملته

(١) كذا في الأصل ولعله سقط منه شيء بل ذلك حتم .

على الله ، ومفارقته في ذلك كل مـــا سواه ، فيكون مفرقاً في عمله وقصده وشهادته وارادته ومعرفته ومحبته بين الخالق والمخلوق بحيث يكون عالماً بالله ذاكراً له عارفاً به ، وأنه تعالى مباين لخلقه ، منفرد عنهم بعبادته [1] وأفعاله وصفاته . فيكون محباً فيه مستعيناً به لا بغيره، متوكلاً عليه لا على غيره.وهذا المقام هو المعنى في ذلك ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهي من خصائص الالوهية التي يشهد له بها تعالى عباده المؤمنون كما أن رحمته لعبيده ، وهدايته إياهم وخلقه السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من خصائص الربوبية التي يشترك في معرفتها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، حتى ابليس عليه اللعنة معترف بهـا في قوله تعالى : ﴿ رب انظرني إلى يوم يبعثون ﴾ وقوله : ﴿ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾ وأمثال هذا الخطاب الذي يعرف بأنه ربه وخالقه ومليكه وأن ملكوت كل شيء في يده تعالى وتقدس،وإنما كفر بعناده وتكبره عن الحق وطعنه فيه وزعمه أنه فيما ادعاه وقاله محق.وكذلك المشركون الأولون يعرفون ربوبيته تعالى وهم له بها يعترفون، قال تعالى: ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، ، سيقولون لله ﴾ وقال : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ فمن دعـا غيره تعالى لم يكن مخلصاً وقال تعالى : ﴿ من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ ، قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين، قال هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ؟، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ والآيات في هذا الباب كثيرة جداً .

وروى الإمام أحمـــد في مسنده والترمذي من حديث حصين بن المنذر أن رسول الله ﷺ قال : « يا حصين كم تعبـد ؟ قال : ستة في الأرض وواحداً في

---

(١) أي بكون العبادة تكون له وحده ، ويجوز أن تكون أصل الكلمة بذاته .

السماء ، قال : فمن ذا الذي تعد لرغبتك ؟ قال : الذي في السماء . فقال له رسول الله ﷺ : « أسلم حتى أعلمك كلمات ينفعك الله بهن » ، فأسلم ، فقال : قل : « اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي » فمجرد معرفتهم بربوبيته تعالى واعترافهم بها لم تنفعهم ولم تدخلهم في الإسلام مع جعلهم مع الله آلهة أخرى يدعونها ويرجونها لتقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده ، فبذلك كانوا مشركين في عبادته ومعاملته . ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم : لا شريك لك ، الا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك و « الدعاء مخ العبادة » كما ان الإله اسم المعبود . وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدعاء هو العبادة — وفي رواية — مخ العبادة » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ الآية ، رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح ، ورواه أيضاً النسائي وابن ماجه والحاكم والإمام أحمد وابن أبي شيبة بهذا اللفظ ، وهذه الصيغة تفيد قصر الدعاء على العبادة فلا يخرج عنها لأنها من الصفات اللازمة التي ليس لها مفهوم يخالف الظاهر كقوله تعالى : ﴿ ومَن يدْعُ مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ﴾ إذ كل مدعو فهو آلهة قصد الداعي أن مدعوه إلهاً أم لا ، اتخذه المشركون الأولون أم لا ، وليس ثمة دعاء إله آخر له برهان .

الشرك باتخاذ الأولياء والشفعاء :

وقد وصف الله سبحانه وتعالى دين المشركين بقوله : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ الآية ، فبيّن في هذه الآية انما قصدهم الشفاعة . وفي صحيح البخاري ومسلم ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل مع الله نداً وهو خلقك » ، قال : قلت ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يُطعَم معك » ، قال : قلت ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » فأنزل الله تصديقها : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ الآية ، فبيّن النبي ﷺ أن أعظم الذنب الشرك بالله الذي هو جعل الأنداد واتخاذهم من خلقه ليقرّبوهم اليه . وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن

رسول الله ﷺ قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا ، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم [1] » ، فدين الله وسط بين الغالي والجافي عنه .

الشرك الأصغر والأكبر :

والشرك : شركان ، أكبر : وله أنواع ومنه الذي تقدم بيانه آنفاً ، وشرك أصغر : كالرياء والسمعة ، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه » ، ومنه الحلف بغير الله لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ : « من حلف بغير الله فقد أشرك » ، أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وصححه ابن حبان . وقال ﷺ : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله او ليصمت » أخرجه الشيخان ، وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال له رجل : ما شاء الله وشئت ، قال : « أجعلتني لله نداً ؟ قل ما شاء الله وحده » ، والشرك الأصغر لا يخرج عن الملة وتجب التوبة منه ومن كل ذنب .

التوسل الصحيح :

فلم يبقَ إلا التوسل بالأعمال الصالحة كتوسل المؤمنين بإيمانهم في قوله: ﴿ربنا

---

(١) الذي في صحيح مسلم : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً ، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . قال النووي في شرحه : إن الثلاثة المرضية ، إحداها : أن يعبدوه ، الثانية : أن لا يشركوا به شيئاً ، الثالثة: أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا ، اهـ. وأورد الحديث السيوطي في الجامع الصغير وذكر الثلاثة المرضية بلفظ المؤلف فيكون قوله صلى الله عليه وسلم : « أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » هو الاولى ، والثالثة : وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » وعزاه الى الامام أحمد ومسلم ، فالمؤلف اختار لفظ الامام أحمد ، وفاته عزو الحديث اليه او سقط من الناسخ .

إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان... ﴾ وكتوسل أصحاب الصخرة المنطبقة عليهم وهم ثلاثة نفر توسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة - الحديث في صحيح البخاري - لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله، وكسؤال الله بأسمائه الحسنى، قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ وكالأدعية المأثورة في السنن: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنّان المنّان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام»، وأمثال ذلك وهـــذا معنى قوله تعالى: ﴿يا أيهـا الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة﴾ لأنها القرب التي يتقرب بهـــا إلى الله وتقرب فاعلها منه، وهي الأعمال الصالحة، لما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: من عادى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما زال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بهـا، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» الحديث، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا أهمّه أمر فزع إلى الصلاة فإنها أعظم القرب إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ وليست الوسيلة بمخلوق يبتغى ليحصل واسطة بين الله وبين خلقه، يشفع لهم ويتقربون اليه، لأن هذا عين ما نهى الله عنه في الآيات، وأنزل بقبحه الكتب، وأرسل الرسل، وهو ما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿إجعل لنـا إلهاً كما لهم آلهة﴾ لأن قصدهم أن يتقربوا به.

الاقسام على الله بالمخلوقين:

وأما الإقسام على الله بمخلوق، فهو منهي عنه باتفاق العلماء، وهل هو منهي عنه نهي تنزيه او تحريم؟ على قولين (أصحهما) أنه كراهة تحريم، واختاره العز ابن عبد السلام في فتاويه، قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول: قـال أبو حنيفـــة رحمه الله: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن تقول بمعاقد العز من عرشك، او بحق خلقك، وهو قول لأبي يوسف، قال أبو يوسف:

بمعاقد العز من عرشك هو الله فلا أكره هذا، وأكره بحق فلان، او بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت والمشعر الحرام ، قال القدوري رحمه الله : المسألة بحق المخلوق لا تجوز لهذا فلا يقول : أسألك بفلان وملائكتك وأنبيائك ونحو ذلك، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق . انتهى — وأما قوله : « وبحق السائلين عليك» ففيه عطية العوفي [١] وفيه ضعف ، ومع صحته فمعناه بأعمالهم [٢] لأن حقه تعالى عليهم طاعته ، وحقهم عليه الثواب والإجابة ، وهو تعالى وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، وإذا والى العبد ربه وحده أقام الله له ولياً من الشفعاء، وهي الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله بخلاف من اتخذ مخلوقاً من دون الله او معه ، فهذا نوع ، وذاك نوع آخر ، كما أن الشفاعة الشركية الباطلة نوع ، وشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد نوع آخر .

حديث الأعمى بالتوسل بالنبي ﷺ :

ما ورد من التوسل بالنبي ﷺ لا يقاس عليه :

ومما استدل علينا الخصم ويزعم أن دعوة غير الله وسيلة قوله : « اللهم إني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى ، اللهم شفعه فيّ » رواه الترمذي والحاكم وابن ماجه عن عمران بن حصين ، فجوابه من وجوه :

الأول : أنه في غير محل النزاع ، إذ هو ليس سؤال النبي ﷺ نفسه ، وإنما هو سؤال الله وحده أن يشفع فيه نبيه ، وعمل الخصم الإختراعي منكر، ورواية

---

(١) قوله ففيه الخ : أي في الحديث الذي وردت فيه هذه الجملة من تلقين النبي صلى الله عليه وسلم ، والمتبادر من معناها انها سؤال لله تعالى بوعده للسائلين أن يستجيب دعاءهم بمثل قوله : (ادعوني أستجب لكم) وليست توسلاً بأشخاص السائلين وهم جماهير البشر من جميع الملل والنحل .

(٢) أي ومع تقدير صحة الحديث فمعناه صحة السؤال بأعمالهم ، والظاهر المتبادر ما قلناه وهو قوله : وحقهم عليه الثواب والاجابة .

الحديث بحرمته ، فأين هــذا من عمارة القبور ، وإلقاء الستور عليها وتسريجها وهذه كلها كبائر ، كما قال أهل العلم ، حتى ابن حجر الهيتمي وغيره : أن حدها [1] كل ما اتبع بلعنة او غضب او نار ، والأحاديث في تحريم عمارة القبور كثيرة في الصحيحين وغيرهما ، ويضاف إلى عمارتها دعاء أصحابها ورجاؤهم ، والإلتجاء اليهم ، والنذر لهم ، وكتب الرقاع لها ، وخطابهم يا سيدي يا مولاي إفعل كذا وكذا ، وبهذا عبدت اللات والعزى ، والويل كل الويل عنـدهم لمن عاب وأنكر عليهم. ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر ونهى ، وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه الناس اليوم ، رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له . وإذا كان سبب قول الله عز وجل ﴿ فلا تجعـلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ مجيء حبر من اليهود إلى رسول الله ﷺ والمسلمين ، وقوله : نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله أنداداً فتقولون : ما شاء الله وشاء فلان ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنه قد قال حقاً » وأنزل الله : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾.وممن أخرج الحديث جلال الدين السيوطي في الدر المنثور في تفسيره [2] هؤلاء يحب أحدهم معتقده أكثر من حب الله ، وإن زعم أنـه لا يحبه كحبه ، فشواهد الحال تشهد عليه بذلك ، فإنه يعظم القبر أعظم من بيت الله ، ويحلف بالله كاذباً ، ولا يحلف بمعتقده . فلا جامع بين مـا استولوا به علينا وبين ما نهيناهم عنه .

الثاني : أن الحديث دليل لنـا أنه لا يدعى غير الله عز وجل ، فإن مسألة « اللهم إني أتوجه اليك » فسأل الله عز وجل أن يشفعه فيه واسطة (؟) « يا حبيبنا يا محمد إنا نتوسل بك إلى ربك فاشفع لنـا » (؟) فهذا خطاب لحاضر كقولنا في صلاتنا : السلام عليك أيهـا النبي ورحمة الله وبركاته ، وكاستحضار الإنسان محبه او مبغضه في قلبه فيخاطبه بما يهواه لسانه ، ومعناه : أتوجه اليك

---

(١) أي الكبيرة .
(٢) كذا . ولعل الأصل : في تفسيره لهذه الآية ، وهو قد ذكره بالمعنى .

بدعاء نبيك وشفاعته التي معناها في هذه الدار الدعاء، ولهذا قال في تمام الحديث: « اللهم شفعه فيّ » أي استجب دعاءه ، وهذا متفق على جوازه ، إذ الحي يطلب منه سائر ما يقدر عليه ، وأما الغائب والميت فلا يستغاث به ، ولا يطلب منه ما لا يقدر عليه ، قال تعالى : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ إنما غايته طلب الدعاء من الحي ، وقبول شفاعته عند الله عز وجل ، وهو ﷺ انتقل من هذه الدار إلى دار القرار بنص الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة ، ولهذا استسقى أصحابه بعمه العباس بن عبد المطلب ، وأن يدعو لهم في الاستسقاء عام القحط ، أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، ولم يأتوا إلى قبره ولا وقفوا عنده مع أنه ﷺ حياته في قبره برزخية . والدعاء عبادة مبناها على التوقيف والإتباع . ولو كان هذا من العبادات لسنة الرسول ، لكان أصحابه أعلم بذلك وأتبع ، ولهذا لم يفعله أحد من الصحابة ولا التابعين مع شدة احتياجهم ، وكثرة مدلهماتهم ، وهم أعلم بمعاني كتاب الله وسنة رسوله وأحرص اتباعاً لملته من غيرهم ، بل كانوا ينهون عنه وعن الوقوف عند القبر للدعاء عنده ، وهم من خير القرون التي قد نص عليها النبي ﷺ في قوله : « خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ، قال عمران : لا أدري أذكر اثنتين أو ثلاثاً بعد قرنه ، أخرجه البخاري في صحيحه .

الثالث : أنهم زعموا أنه دليل للوسيلة إلى الله بغير محمد ﷺ وخرجوا عن محل النزاع إلى شيء آخر ، وهو التوسل بغير رسول الله ﷺ فلا دليل فيه أصلاً ، لأنهم صرحوا بأنه لا يقاس مع فارق . فلا يجوز لنا أن نقول : اللهم إنا نسألك ونتوجه اليك برسولك نوح ، يا رسول الله يا نوح ، ولا لنا أن نقول : إنا نسألك ونتوجه اليك بخليلك إبراهيم ، ولا بكليمك موسى ، ولا بروحك عيسى ، مع أن الجامع في نوح عليه السلام الرسالة ، وفي إبراهيم عليه السلام الخلة مع الرسالة ، وفي موسى عليه السلام الكلام مع الرسالة ، وفي عيسى روح الله وكلمته مع الرسالة ، فليس لنا أن نقول هذا لأنه لم يرد ولا حاجة لنا إلى فعل شيء لم يرد . والقياس إنما يباح عند من يقول به للحاجة في حكم لا يوجد فيه نص ، فإذا وجد النص

فلا يحل القياس عند من يقول به، ولا حاجة لنا إلى قول مخترع يجرُّ إلى الشرك، خصوصاً مع ما ورد فيه، وأنه في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، وأن هذه الأمة افترقت على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، فالناجية من اتبع ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

الرابع: إن الوسيلة ليست هي أن ينادي العبد غير الله، ويطلب حاجته التي لا يقدر على وجودها إلا الرب تبارك وتعالى ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، كذلك من سرق التابوت والمعلق عليه من بيض النعام أو غيره.

حديث نداء من انفلتت دابته يحبسها من سمعه:

ادعاء الاجماع على بدع القبوريين:

التوسل الى الله بشيء من مخلوقاته:

ومما استدلّ به علينا في جواز دعوة غير الله في المهمات قوله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن مسعود: «إذا انفلتت دابة أحدكم في أرض فلاة فلينادِ: يا عباد الله احبسوها» وفي رواية «إذا أعيت فليناد: يا عباد الله أعينوا» وهذا من جملة الجهل والضلال، وإخراج المعاني عن مقاصدها من وجوه:

الأول: أن هذه ليست بوسيلة أصلاً إذ معنى الوسيلة ما يتقرب به من الأعمال إلى الله عز وجل وهذا ليس بقربة.

الثاني: أن الحديثين غير صحيحين، أما الأول فرواه الطبراني في الكبير بسند منقطع عن عقبة رضي الله عنه، وحديث انفلات الدابة عزاه النووي رحمه الله لابن السني، وفي اسناده معروف بن حسان قال ابن عدي: هو منكر الحديث ولا دليل في هذين الحديثين مع ضعفهما ولا في الحديث المتقدم قبلهما على دعاء أصحاب القبور كعبد القادر الجيلاني من قطر شاسع، بل ولا من عند قبره، ولا ينادى غيره، لا الأنبياء، ولا الأولياء، إنما غايته أن الله عز وجل

جعل من عباده من لا يعلمهم إلا هو سبحانه[1] ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ وإذا نادى شخصاً باسمه معيناً فقد كذب على رسول الله ﷺ ونادى من لا يؤمر بندائه ، وليس معنى الحديث في كل حركة وسكون وقيام وقعود ، وإنما أبيح له ذلك إن أراد عوناً على حمل متاعه أو انفلتت دابته ، وهذا مع تقدير صحة الحديث .

الثالث : أن الله تعالى قال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ بعد أن أكمله بفضله ورحمته ، فلا يحل أن تخترع فيه ما ليس منه ، ونقيس ما لا يقاس عليه .

الرابع : أن الحديث الصحيح إذا شذ عن قواعد الشرع لا يعمل به ، فإنهم قالوا : إن الحديث الصحيح الذي يعمل به إذا رواه العدل الضابط عن مثله من غير شذوذ ولا علة ، فكيف العمل بالحديث المتكلم فيه بما لا يدل عليه دلالة مطابقة ولا تضمن ولا التزام ؟ فهذا هو البهتان .

الخامس : أنهم زعموا موافقتهم بذكر من يعتقدونه ونسبوا الأفعال اليهم وكل أحد يذكر ما وقع له من الاستغاثة بفلان أو إنجاده ، وكشف شدته ، فإذا قال أحد سبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، قاموا عليه وخرجوه وبدعوه وقالوا معلوم أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فإذا قال نعم ، ولكن ليس لأحد منهم ملكوت خردلة والله يقول : ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ فإن منهم من يدعي العلم والإنصاف وهو واسع الصدر يقول : هذه الآية نزلت في عبادة الأصنام فإذا قيل له الأصنام ود وسواع ويغوث ويعوق أسماء رجال صالحين ، وهذه الخرق على التوابيت ودعوة الأموات هي فعل عباد الأصنام ، وقد قرر أهل العلم أن العام لا يقصر على السبب مثلاً أن نستحل أن لا

---

(١) كذا . والمتبادر ان النداء لمن عساه يوجد من الناس في الفلاة ولم يره وهو معتاد .

نؤدي الأمانة ، فإذا قيل أن أدوا الأمـانة فإن الله يقول : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ فلا يقال هذه نزلت في مفتاح باب الكعبة فلا يحتج بها عامة . كذلك لا يقال هذه نزلت في عباد الأصنام ، ونفعل فعلهم ونقول : لسنا مشركين . وفي الأحاديث القدسية عن خير البرية ﷺ قال الله عز وجل : ﴿ أنا والجن والإنس في نبأ عظيم: أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري ﴾ أخرجه الحاكم والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء رضي الله عنه – أجاب بأن الأمة مطبقة على هذا ، والامة لا تجتمع على ضلالة ، فيلزمه تضليل الامة وتسفيه الآباء ، جوابه أما إن الامة مطبقة على هذا فكذب عليها ، هـذه كتب الحديث والتفسير ، فيها: لا يجوز أن يدعى غير الله عز وجل بما لا يقدر عليه إلا هو تعالى ولا يباح ، بل الآيات البينات والأحاديث ، وأقوال العلماء ، ترشد أن هذا شرك محقق والله تعالى يقول لرسوله ﷺ : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ﴾ ويقول : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ والاحاديث ونصوص العلماء لا تخالف الكتاب .

السادس : أنه قد اختلفوا في التوسل اليه بشيء من مخلوقاته تعالى وتقدس هل هو مكروه أو حرام ، والأشهر: الحرمة ، كما قال به أبو محمد العزبن عبدالسلام في فتاويه أنه لا يجوز التوسل اليه بشيء من مخلوقاته لا الأنبياء ولا غيرهم ، وتوقف في حق نبينا محمد ﷺ هل فيه الحرمة أو الكراهة ، وتقـدم قول أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله .

السابع : أنهم يشترون أولادهم ممن يعتقدونه ، ويجعلون زوايا لمن يعتقدونه ويجعلون فيها الطبول والبيارق والمزاهر ومطارق الحديد يضربون بها أنفسهم ، وفيها جماعة ينسبون إلى ذلك المعتقد كالعلوانية ، والقادرية ، والرفاعية ، وهي أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، ويعبدون أنفسهم لهم كعبد فلان وفلان والله قد سمانا المسلمين قال الله تعالى : ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ في الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل ، وفي هذا القرآن ، فاستبدلوا الذي أدنى بالذي هو خير . وإذا مرض هـذا المشتري من المعتقد نذر أهله له النذور ، ولم يزل يستغيث بأن

يشفى سقمه ، ويكشف شدته ، وهذا الأمر سرى في العلماء والجهال ، وفي مكة أكثر منهم ، قد غلبت عليهم العوائد ، وسلبت عقولهم عن تفهم المراد والمقاصد من الكتاب والسنة ، وكلام الأئمة ، لم يجدوا هـــذا في كتاب فروع أحد منهم ولا أصوله ، صانهم الله عن هذه الوصمة ، فما استدلوا به مما تقدم لا يكون دليلاً على التوسل بالأموات المعلوم حالهم أنهم في أعلى الجنان، فكيف غيرهم ممن لا يعلم حاله في الآخرة ، ولا يدري أين مآله ، كيف يكون دليلاً على دعوة غير الله في المهمات، ويقال: الوسيلة،ويستدل لها بهذا ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ وتحريف للكلم عن مواضعه .

معادات القبوريين لمن ينكر بدعهم :

أحاديث الأمر بتسوية القبور :

فبهذا يتبين أن الشيطان اللعين نصب لأهل الشرك قبوراً يعظمونها ويعبدونها أوثاناً من دون الله، ثم يوحي إلى أوليائه أن من نهى عن عبادتها واتخاذها أعياداً وجعلها والحالة هذه أوثاناً فقد انتقصها وغمصها حقها،فيسعى الجاهلون المشركون في قتالهم وعقوبتهم ، وما ذنبهم عند هؤلاء المشركين الا انهم أمروهم بإخلاص التوحيد،ونهوهم عن الشرك بأنواعه وقالوا بتبطيله، فعند ذلك غضب المشركون واشمأزت قلوبهم فهم لا يؤمنون . وقالوا قــد انتقصوا أهل المقامات والرتب ، فاستحقوا الويل والتعب ، وفي زعمهم أنهم لا حرمة لهم لدنيا ولا قدر ، حتى سرى ذلك في نفوس الجهال والطغام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حباً للأولياء أتباع المرسلين،وبسبب ذلك عادونا ورمونا بالعظائم والجرائم ، ونسبوا كل قبيح الينا،ونفروا الناس عنا وعما ندعو اليه،ووالوا أهل الشرك وظاهروهم علينا ، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله وكتابه ، ويأبى الله ذلك فما كانوا أولياءه، إن أولياؤه الا المتقون له ، الموافقون له العارفون به، وبما جاء به،والعاملون به والداعون اليه ، لا المتشبعون بما لم يعطوا اللابسون ثياب الزور الذين يصدون الناس عن دين نبيهم وهديه وسنته ويبغونها عوجاً وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً باتباعه واحترامه والعمل به ، وتعظيم الأنبياء والاوليـــاء

واحترامهم متابعتهم لهم فيما يحبونه، وتجنب ما هم يكرهونه، وهم أعصى الناس لهم ، وأبعدهم منهم ومن هديهم ومتابعتهم ؛ : كالنصارى مع المسيح ، وكاليهود مع موسى ، والرافضة مع علي . وأهل التوحيد أين كانوا أولى بهم وبمحبتهم ونصرة طريقتهم وسنتهم وهديهم ومنهاجم ، وأولى بالحق قولاً وعملاً من أهل الباطل . فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . والمنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات بعضهم أولياء بعض،ومن أصغى إلى كلام الله بكلية قلبه، وتدبره وتفهمه أغناه عن اتباع الشياطين وشركهم الذي يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، وينبت النفاق في القلب ، وكذلك من أصغى اليه وإلى حديث رسول الله بكليته وحدث نفسه بهما وعمل باقتباس الهدى والعلم منهما لا من غيرهما أغنياه [١] عن البدع والشرك والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات التي هي وساوس الشيطان والنفوس، وتخيلات الهوى والبؤس، ومن تعوّد ذلك [٢] فلا بد أن يتعود ما لا ينفعه بل يكون مضرة عليه [٣] كما أن من عمر قلبه بمحبة الله وخشيته والتوكل عليه [٤] أغناه أيضاً عن عشق الصور ، وإذا خلا عن ذلك صار عبد هواه ، أي شيء استحسنه ملكه واستعبده ، فالمعرض عن التوحيد عابد للشيطان مشرك شاء أم أبى ، كما في صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي واسمه حيان بن حصين ، قال : قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ، أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته . وفي الصحيح أيضاً عن عنامة بن شفى الهمداني قال : كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها . وقد أمر به وفعله الصحابة

---

(١) في الأصل :من غيري أغناه وهو تحريف ظاهر من الناسخ ومثله فيه كثير نبهنا على بعضه.

(٢) لعل الأصل : ومن تعود ذلك .

(٣) لعل الأصل : بل ما هو مضرة ، وكان الأولى أن يقال بل ما يضره .

(٤) يظهر أنه سقط من هنا شيء عطف عليه ما بعده .

والتابعون والأئمة المجتهدون، قال الشافعي في (الأم) ورأيت الأئمة بمكة يأمرون بهدم ما يبنون على القبور . ويؤيد الهدم قوله : « ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » وحديث جابر الذي في صحيح مسلم نهى ﷺ عن البناء على القبور ، ولأنها أسست على معصية الرسول لنهيه عن البناء عليها وأمره بتسويتها ، فبنـــاء أسس على معصيته ومخالفته ﷺ بناء غير محترم وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعاً ، وأولى من هـــدم مسجد الضرار المأمور بهدمه شرعاً ، إذ إزالة المفسدة أعظم حماية للتوحيد ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على أفضل الخلق أجمعين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين.